الحضـــــارة المصرية
في عهد الدولة القديمة
بحث للعلامة الالمعي اريك بيت
للأستاذ احمد نجيب هاشم
(تابع)

دل قيام الملكية الواحدة في مصر على تقدم عظيم ، تقدم جعل كثيرين يعتقدون أنه راجع إلى إغارة شعب أجنبي أكثر حضارة ، ولكن المستكشفات الحديثة لا تؤيد هذا الرأي . أجل إن مقابر الأسرة الأولى تفوق بمراحل مقابر ما قبل الأسرات مباشرة ، ولكن يجب أن نتذكر أن هذه المقابر الأخيرة إنما هي مقابر عامة الناس ، ولم يعثر على مقابر ملوك ماقبل الأسرات ، فلا يصح أن نقرن مقابر عامة الناس في عصر ما بمقابر ملوك في عصر آخر

والحقيقة نفسها توضح لنا كيف أن الكتابة تظهر فجأة في الأسرة الأولى بشكل بعيد عن حالتها الأولية ، إذ كان الخط المستعمل هو الخط الهيراطيقي ، وهو كما لا يخفى اختزال للهيروغليفي فلابد إذن أن يكون هذا الأخير مستعملاً قبل حكم الأسر بزمن طويل . وإذا قصرنا أنفسنا على نوع واحد من المقابر رأينا أن الانتقال من قبل الأسرات إلى عهد الأسرات حدث تدريجياً . ثم إن الأعمال الفنية في الفترة الأخيرة السابقة للأسرات ومن أهمها لوح « نارمر » الأردوازي ومقبض سكين جبل العرك تدل على أن فن الأسرة الأولى هو ثمرة نمو تدريجي لأهل البلاد

أما وقد قامت الملكية فكان لابد للأنظمة الاجتماعية والسياسية أن تتطور إلى حد بعيد ، ولم يكن الملك المصري في أول الأمر إلا رئيساً محلياً ممتازاً

وكان رئيس القبيلة حاكماً وكاهناً أكبر ومشرعاً لقبيلته فأصبحت هذه الوظائف كثيرة على الملك بعد أن اندمجت القبائل قهراً وطوعاً وأصبحت مصر مملكة واحدة ، لذلك اضطر أن يتنازل عن بعض هذه الوظائف ، ولكنه ظل نظرياً الكاهن الأكبر لكل إله ، فنراه في نقوش المعابد يرأس كل الحفلات الدينية الهامة ، وإذ كان من المستحيل أن يوجد في مكانين في آن واحد كان لابد أن ينوب عنه كهنة ، وبذلك نرى في أيام المملكة القديمة نواة طائفة الكهنة المحترفين آخذة في التكون

ولا نعرف شيئاً كثيراً عن تاريخ الملكية في عهد الأسرات الثلاث الأولى ؛ فاذا وصلنا إلى الأسرة الرابعة وجدنا مادة كثيرة نستطيع أن نكون منها صورة هامة عنها ، ومع ذلك يجب أن نذكر أن مادتنا هذه تتكون إلى درجة كبيرة من ألقاب ، وهذه قد تكون مضللة لاسيما وأن فرعون كان يغدقها عن سعة على المقربين اليه حتى اضطر أصحاب الوظائف الحقيقية أن يلجأوا في كثير من الظروف إلى إضافة كلمة الحقيقي بعد لقبهم تمييزاً لهم عن غيرهم (١)

الحكومة المحلية

كانت حكومة البلاد في يد إدارات محلية تشرف عليها الحكومة العليا وعلى رأسها الملك . وكانت الولاية هي الوحدة الادارية ويرأسها الأمير أو حاكم الاقليم ، وكان حاكماً وقاضياً ومديراً في ولايته وهو فوق ذلك الكاهن الأكبر لإلهها المحلي ويتمتع بحرية كبيرة داخل حدود ولايته

على أن هذا الحاكم كان مسئولا أمام الحكومة العليا عن ضرائب ولايته ، وعن إدارته لها إلى حد ما . والظاهر أن انقسام البلاد إلى إمارات على هذا الشكل هو أثر لانقسامها إلى قبائل قبل هذا التاريخ . وكان الأمراء يتوارثون الحكم في الولايات بعد موافقة الملك لأن الأرض نظرياً كانت كلها ملكه

الحكومة العليا

وليست معلوماتنا عن الحكومة العليا أكثر منها عن الحكومة المحلية إن لم تكن أقل ؛ فالملك هو الرئيس الأعلى ، وفي عهد الأسرة الثالثة بدأ فرعون يختار وزيراً لمساعدته في المسائل القضائية والادارية ، ونجد أن ملوك الأسرة الرابعة يختارون وزراءهم من أبنائهم ، ثم أصبح فرعون يختار وزيره بعد ذلك من أسرة أخرى إذا شاء . وكان أكثر رجال المملكة مسؤلية لأنه كان الرئيس المباشر لأعمال الموظفين في الحكومة الفرعونية كافة من إداريين وكتبة من أكبرهم إلى أصغرهم ، وكان يشترط فيه أن يكون بارعاً في فن العمارة ، ومن أهم وزراء الأسرة الثالثة الوزير الحكيم « امحتب » الذي برع في الطب والعمارة وشيد لملكه زوسر هرم سقارة المدرج

(١) برستد تاريخ مصر ترجمة الدكتور حسن كمال

ويساعد الملك غير الوزير عدد من الموظفين، وكانت أعمال خزانة الدولة فى يد بيت الفضة والشونة المزدوجة إشارة إلى الشونة الملكية، كذلك نسمع عن كنوز الاله أى الملك وكنوز ملك الوجه البحرى (وهذا من غير شك لقب قديم ظل بعد اتحاد القطرين) ونقرأ أيضاً عن مراقبى بيت الفضة ومخازن الغلال. ويرجح أن تجزئة إدارة القطر المصرى بين وجهيه لم تذهب إلى أبعد من التجزئة الاسمية، وقد حافظ المصريون على هذا الازدواج الاسمى فى مصالح الحكومة، مع أن وجهى مصر انضما معاً تحت إدارة واحدة، وإنما فعلوا ذلك احتراماً للقديم الراسخ فى الأذهان[1] ولكن بالرغم من أن الملك اضطر أن يتنازل عن بعض وظائفه إلا أنه ظل ملكاً مطلقاً

من السهل أن نتبين مزايا هذا النظام وعيوبه، فمتى كان فرعون قوياً يمكنه أن يضع حداً لمطامع الأمراء فالنظام سليم لأن الحكومة فى كل اقليم كانت فى يد أشخاص خبيرين بالشئون المحلية. أما إذا كان الملك ضعيفاً فان تلك السلطة الهائلة التى يتمتع بها الحكام المحليون تصبح خطراً على الدولة يهدد كيانها، ولهذا السبب عينه يرجع سقوط الدولة القديمة فى نهاية الأسرة السادسة ثم إغارة الأسيويين أثر ذلك على الدلتا فقد أخذت قوة الأمراء تزداد تدريجياً على حساب الملكية

والآن علينا أن نسأل كيف كان نظام المجتمع فى ذلك العصر؟

الملك وبلاطه

كان على رأس الدولة الملك وبلاطه، وقد كونوا بيروقراطية كبيرة تهتم بالألقاب اهتماماً عظيماً فنرى ألقاب البعض يقرب عددها من الثلاثين أو الأربعين أغلبها لا معنى له، وبجانب هذه البيروقراطية المركزية نجد بيروقراطية أخرى مشابهة لها فى قصبة كل إمارة، وكان لكثير من هؤلاء الموظفين أملاك واسعة فى ولاياتهم

الفلاحون

يفصل الموظفين عن الفلاحين بون شاسع، لأن هؤلاء كانوا يشتغلون كعبيد فى مزارع الملاك، يحرثون الأرض ويروونها، ويتعهدون الماشية والأغنام، ولا نسمع عن وجود طائفة وسطى بين الطبقتين الآنفتى الذكر؛ فإن كان هناك طبقة من هذا النوع — ولا بد أن التجار وأصحاب المهن والحرف كونوا طبقة — فإنها لم تكن غنية بدرجة تكفيها لأن تفاخر بفضائلها فى مقابر منقوشة نقشاً جميلاً، ولا بد أنها كانت معتمدة على نفسها ولم تعد من طبقة الخدم، لأننا نجد الأمراء يولعون برسم خدمهم على جدران مقابرهم. كذلك لا نعرف شيئاً عن مراكز الكهنة الاجتماعى، وإنما نعرف أن عددهم كان وافراً، وأنهم كانوا يعيشون على الهبات التى تقدم إلى المعابد؛ وإن صح لنا أن نذكر تعميماً عن الحياة فى المملكة القديمة فإننا نميل إلى القول بأن الأمراء وكبار الموظفين كانوا سعداء الحظ بينما كان الفلاحون تعساء فهم عبيد يلحقون بالضياع الواسعة، وينتقلون من مالك إلى آخر كأنهم جزء لا يتجزأ عن الأرض ليس لهم حقوق على أسيادهم، إذا ارتكب واحد منهم أقل هفوة فالجلد المضنى عقابه، وأشد من هذا وأنكى أنه لم يكن لهم سيد واحد بل اثنان، فاذا جاء الفيضان وغطى ماؤه الأرض وأصبح العمل فى الحقل مستحيلا لمدة طويلة كان على الفلاح أن يقوم بعمل آخر فى خدمة الملك، إذ عليه أن يذهب لينقل الأحجار التى تقطعها العمال من المحاجر الواقعة تجاه منف فيشتغل هو وزملاؤه تحت إشراف موظفى الحكومة، وينقلون الأحجار فوق الحقول المغطاة بالمياه إلى حيث يريد الملك أن يبنى هرمه، ولم يكن لهذه العملية نهاية فان أول ما يفكر فيه الملك عند إخلائه العرش هو بناء مقبرة له، فاذا أتمها قبل أن يموت أخذ يحسن ويوسع فيها، وإذا انتهت أيامه فهناك هرم خلفه لابد من بنائه

وقد اهتم المصريون القدماء كما نفعل اليوم بفيضان النيل، وهذا أمر طبيعى فان سقطت الأمطار بغزارة على الجبال القائمة فى الجنوب الشرقى من مصر خافوا فيضاناً عالياً يهدد حياتهم، ويغرق جزءاً كبيراً من أراضيهم، وإن قلت الأمطار توقعوا فيضاناً منخفضاً يتلوه قحط ومجاعة فى البلاد، فكانوا إذا اقترب وقت الفيضان يتحدثون عن النعم التى يغدقها عليهم «نيل طيب» ويبدؤون فى البحث عن الوسائل التى يجب عليهم اتخاذها وقت الخطر، إذ كان كل واحد منهم يتأثر بهذا الحادث السنوى — كل حريص على محصوله — أما موظف الحكومة فعليه أن يحسب مقدماً مقدار ما ستأخذه الحكومة من محصول كل شخص، وهذا هو الضريبة الرئيسية. كذلك كان يعد الحازمون من الحكام المدة لإطعام فقراء إقليمهم إذا ما انخفض الفيضان، ويخزنون الحبوب للمستقبل إن كان المحصول أكثر من المتوسط

(البقية فى العدد القادم)

احمد نجيب هاشم

(١) برستد: تاريخ مصر ترجمة الدكتور حسن كمال ص ٤٥